مجلة العلوم الإنسانية العربية
المجلد (٥) العدد (٣)
الإصدار السابع عشر
٢٠٢٤ (٦-١)

منهجية الجابري في قراءة الثقافة العربية اعتمادا على كتابه نحن والتراث

أميمة حنين

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

نشر إلكترونياً بتاريخ: ١٥ يوليو ٢٠٢٤م

*** مبادئ قراءة جديدة للتراث**

اعتمد الجابري في قراءته للتراث على ما أسماه هو بقراءات معاصرة لجوانب أساسية من التراث الفلسفي[١]، اعتبرها بمثابة مساهمة متواضعة تندرج ضمن تلك الجهود المبذولة من طرف الفكر العربي الحديث والمعاصر الذي يبحث عن طريقة ملائمة للتعامل مع هذا التراث. ويشير الجابري في ذات السياق أن اعتماده لهذه القراءات المتعددة للتراث لا يعود إلى اختلاف بعضها عن بعض في المنهج أو الرؤية، بل فقط لكون أن كل واحدة منها كانت قد أنجزت بمعزل عن الأخرى و لم يكن هناك من تصور مسبق لتنظيمها وجمعها، الأمر الذي دفع الجابري إلى الانطلاق في دراسته للتراث بالاعتماد على منهج استقرائي ينطلق فيه من الجزء إلى الكل؛ وذلك نتاج لقناعة الخاصة بأن الكل الجاهز يـــظل القارئ ويشوه المقروء.

وبالرغم من تعدد هذه القراءات إلا أنها تصدر عن منهج واحد وعن رؤية واحدة [٢]، وهي بحسب تصور الجابري ليست مجرد قراءة أو بحث فهي تجاوزت هذا المستوى إلى مستوى آخر تقترح فيه بصراحة و وعي تأويلي يعطي للمقروء معنى يجعله في آن واحد و ذا معنى بالنسبة لمحيطه الفكري، الاجتماعي، السياسي و حتى بالنسبة لنا نحن القارئين.

إن ما يجعل قراءة الجابري للتراث قراءة معاصرة هو كونها أولا تحرص على جعل المقروء معاصرا لنفسه على صعيد الإشكالية والمحتوى المعرفي والمضمون الإيديولوجي، ومن جهة أخرى فهذه القراءة تسعى إلى جعل هذا المقروء معاصرا لنا ولكن فقط على مستوى الفهم والمعقولية، وفي هذا الصدد يقول الجابري تعزيزا للطرح أعلاه: " إن جعل المقروء معاصرا لنفسه معناها فصله عنا وجعله معاصرا لنا معناه وصله بنا ...

[١] محمد عابد الجابري، نحن والتراث قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، الطبعة السادسة (بيروت، المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣)، ص ١١

[٢] المصدر نفسه، نفس الصفحة

قراءتنا تعتمد إذن الفصل والوصل كخطوتين منهجيتين رئيسيتين " [٣].

*** قراءات كلها سلفية**

طرح الجابري في هذا السياق سؤالين، كلاهما متضمن في الآخر ومرتبط به لدرجة يصبحان معها سؤال واحدا وهما كيف نستعيد مجد حضارتنا ...؟ كيف نحي تراثنا ...؟ [٤]

إن هذا السؤال التركيبي إذا ما تأملناه قليلا نجده يستعيد زمان الماضي في سؤاله عن إحياء هذا التراث الذي طواه النسيان ، إن حضور الماضي في هذا السياق حضور قوي لدرجة تجعله يمتد إلى المستقبل و يحتويه ، و يضيف الجابري إلى كون الدافع الرئيس للذات العربية الحديثة إلى تأكيد نفسها بهذا الشكل أمر معروف و معترف به من طرف الجميع فالصراع الذي مرت به و الخلط الثقافي الذي عاشته و تأثرت به جعلها تنسى نوع ما – كي لا نقول بشكل قاطع و يكون كلامنا مجوزم و ومحسوم في هذه المسألة — أصلها و خلفيتها الحقيقية التي ساهمت في تشكلها فكان البحث لمعرفة الأصل المخفي هاجس و هدف الذات العربية ، الذي بموجبه ستتمكن من إثبات الصفة المنسوبة لها ؛ أي كونها ذات عربية بما تحمله الكلمة من معنى و أول منطلق لها هو إحياء هذا المنسي الذي هو التراث ، بمعنى أصح إحياء تراثها العربي .

لقد أوضح الجابري في إطار حديثه عن التراث أن التيار السلفي في الفكر العربي الحديث والمعاصر، تيار اشتغل أكثر من غيره بالتراث وإحياءه وكذا استثماره في إطار قراة إيديولوجية أساسها إسقاط صورة المستقبل المنشود. ويضيف الجابري في نفس السياق موضحا بدايات هذا التيار الذي لبس لباس حركة دينية وسياسية إصلاحية ومنفتحة[٥]، حركة تنادي بالتجديد وترك التقليد؛ هذا الأخير الذي يكتسي طابعا خاصا باعتباره إلغاء لكل التراث المعرفي والمنهجي والمفهومي المنحدر من عصر الانحطاط، هذا مع ضرورة توخي الحذر في ذات الوقت من السقوط فريسة للفكر الغربي. في حين أن التجديد يعني بناء مفهوم جديد للدين عقيدة وشريعة انطلاقا من الأصول مباشرة والعمل على تحينه أي جعله معاصرا لنا وأساس نهضتنا وانطلاقتنا.

إن القراءة السلفية حملت شعار الأصالة ولتمسك القوي بالجذور والحفاظ على الهوية التي هي الإسلام الحقيقي. إننا إذن أمام قراءة إيديولوجية لا تاريخية [٦]وبالتالي فهي لا يمكنها ان تنتج سوى نوع واحد من الفهم للتراث هو الفهم التراثي للتراث؛ إنها إذن تراث يكرر نفسه. إن السلفية الدينية اتخذت من الدين السبيل الوحيد في قراءتها للتاريخ، ما جعل هذ الأخير ممتدا ومنبسطا في الوجدان شاهدا على الكفاح المستمر والمعاناة المتواصلة من أجل إثبات الذات وتأكيدها. لقد اتخذت هذه الحركة السلفية من الإيمان عامل أساسي روحي وحيد محركا للتاريخ، واعتبرت في المقابل العوالم الأخرى ثانوية وتابعة ومشوهة للمسيرة.

كيف نعيش عصرنا؟ كيف نتعامل مع ثراثنا؟

يتعلق الأمر هنا بالقراءة الاستشراقية التي تتخذ امتداداتها إلى الأساتذة العرب شكل سلفية استشراقية تقدم

[٣] المصدر نفسه، ص ١٢
[٤] المصدر نفسه، نفس الصفحة
[٥] المصدر نفسه، نفس الصفحة
[٦] المصدر نفسه، ص ١٣

نفسها على أساس أنها قراءات تتوخى الموضوعية وتلتزم الحياد، وتنفي أن تكون لها اي دوافع نفعية أو حتى أهداف إيديولوجية. ويشير لجابري في ذات السياق إلى كون هذه الرؤية الاستشراقية تقوم من الناحية المنهجية على معارضة الثقافات على قراءة الثراث بالثراث، ومن هنا إذن حضور للمنهج الفيلولوجي الذي يعمل على رد كل شيء لأصله، أي في هذه الحالة رد هذا الثراث لأصوله اليهودية والمسيحي والفارسية واليونانية ... [٧]

إن ما تدعيه هذه القراءة الاستشراقية هو أنها تريد أن تفهم[٨] ، بمعنى آخر أن غرضها الأسمى الذي تطمح له، هو محاولة فهمها لمدى فهم العرب لتراث من قبلهم؛ ذلك أن العرب الذين كانوا واسطة بين الحضارة اليونانية والحضارة الحديثة دورهم يتحدد من هنا بالأساس أي في استعابهم لماضي غير الماضي العربي إنه ماضي الثقافة اليونانية بالأساس.

كيف نحقق ثورتنا كيف نعيد بناء تراثنا؟

الحديث في هذا السياق هو حديث عن نظام العلاقات بين الستقبل والماضي، ولكن بوصفهما مشروعين فقط، إنه مشروع الثورة التي لم تتحقق بعد، والمطلوب من التراث هو المساعدة على إنجاز هذه الثورة. والفكر اليساري العربي المعاصر الذي يتبنى المنهج الجدلي بالرغم من ذلك يجد نفسه يدور في حلقات فرغة؛ لأن هذا الفكر اليساري العربي المعاصر لا يتبنى المنهج الجدلي كمنهج تطبيق، بل يتبناه كمنهج مطبق يكون بموجبه التراث العربي الإسلامي انعكاسا للصراع الطبقي من جهة، وميدانا للصراع بين المادية والمثالية من جهة أخرى[٩] . ومن ثمة تصبح مهمة القراءة اليسارية للتراث هي تعيين الأطراف و تحديد لموقع في هذا الصراع المضاعف، وإذا استعصت المهمة على هذا الفكر اليساري العربي ألقى بلومه و عبر عن قلقه من التاريخ العربي غير المكتوب أو اتخد من صعوبة التحليل ذريعة أمام هذا التعقيد الذي تتصف به الأحداث التاريخية. ويشير الجابري في ذات السياق موضحا النقاط المشتركة بين هذه القراءات الثلاث التي تم عرضها سلفا مبينا نقده لها، إلى كونها أنها كلها تجتمع مع بعضها البعض من الناحية الابستيمولوجية المعرفية؛ أي من ناحية طريقة التفكير التي تعتمدها كل منهما في وقوعها تحت آفتين آفة في المنهج وآفة في التفكير. فمن الناحية المنهجية فهذه القراءات تفتقر إلى الحد الأدنى من الموضوعية، أما من حيث الرؤية فهي جميعها تعاني من غياب النظرة التاريخية. وفي هذا الصدد يقول الجابري :" اللاتاريخية والافتقاد إلى الموضوعية ظاهرتان متداخلتان تلازمان كل فكر يئن تحت ثقل أحد اطراف المعادلة التي يحاول تركيبها الفكر الذي لا يستطيع الاستقلال بنفسه فيلجأ إلى تعويض هذا النقص بجعل موضوعاته تنوب عنه في الحكم على بعضها هنا تذوب الذات في الموضوع و بنوب الموضوع عن الذت التي يتوارى ما تبقى منها بعيدا إلى الوراء بحثا عن سلف تتكئ عليه لترد الاعتبار إلى نفسها من خلاله و بواسطته و الفكر العربي الحيث المعاصر من هذا القبيل و لذلك كان معظمه سلفي النزعة و الميول وإنما الفرق بين اتجاهاته و تياراته هو في نوع السلف الذي يتحصن به كل منهما " [١٠].

[٧] المصدر نفسه، ص ١٤
[٨] المصدر نفسه، نفس الصفحة
[٩] المصدر نفسه، ص ١٥
[١٠] المصدر نفسه، ص ١٦

وفي إشارة من الجابري أوضح أن هذه القراءات السلفية كلها مكونة على أساس طريقة واحدة في التفكير، وهي قياس الغائب على الشاهد وهكذا سواء كان الأمر متعلقا بالاتجاه الديني أو القومي أو اليساري أو غيره من الاتجاهات في الفكر العربي هناك دوما شاهد يقاس عليه الغائب الذي هو هنا المستقبل.

*** خطوات منهج الجابري ومستويات القراءة**

ضرورة القطيعة مع الفهم التراثي للتراث: نقد للقراءة السلفية

أشار الجابري في هذا الإطار إلى ضرورة الوقوف على قضية مهمة و أساسية تتجلى في نقد العقل العربي بالدرجة الأولى ، باعتبار أن هذا العقل العربي الراهن هو عبارة عن بنية ساهمت في تشكيلها عناصر متعددة ، على رأسها أسلوب الممارسة النظرية النحوية و الفقهية و الكلامية السائدة آنذاك في عصر الانحطاط ، و لهذا و لكي لا تبقى دعوة تجديد الفكر العربي أو تحديث العقل العربي مجرد كلام فارغ ، فذلك يدعونا إلى ضرورة كسر بنية العقل المنحدر إلينا من عصر الانحطاط و أول ما يجب التخلص منه ، عن طريق ما أسماه الجابري طريقة النقد الدقيق الصارم و هو ذلك الثابت البنيوي الذي هو القياس في شكله الميكانيكي . إن تجديد العقل العربي يعني بالدرجة الأولى إحداث قطيعة معرفية إبستيمولوجية تامة مع بنية العقل العربي في عصر الانحطاط وامتداداتها إلى الفكر العربي الحديث والمعاصر. والقطيعة الإبستيمولوجية هنا لا تتناول موضوع المعرفة[١١] ، إن ما يدعو إليه الجابري هنا ليس هو القطيعة الحرفية مع التراث، ولكن ما يعنيه هو التخلي عن ذلك الفهم التراثي للتراث؛ أي التحرر ما أمكن من تلك الرواسب التراثية في عملية فهمنا للتراث[١٢] . أول هذه الرواسب يتجلى في القياس النحوي الفقهي الكلامي في صورته الآلية اللاعلمية؛ إن القطيعة التي يدعو لها الجابري هي قطيعة مع نوع من العلاقة مع التراث تلك القطيعة التي تحولنا من كائنات تراثية إلى كائنات لها تراث، أي إلى شخصيات يشكل التراث أحد مقومتها، وفي شخصية أعم هنا هي الأمة صاحبة التراث[١٣] .

إن مشكلة المنهج هنا ليست مشكلة أختيار بقدر ما أنها مشكلة موضوعية؛ أي أن المنهج لا يصلح في قراءة التراث إلا إذا كان منفصلا عن الذات متمتعا باستقلال يجعله لا يدخل في تكوينه الذات و لا الذات تدخل في تكوينه، فعندما يتعلق الأمر بموضوع هو نفسه جزء من الذات و الذات جزء منه هنا إذن تصبح مشكلة المنهج مشكلة الوسيلة التي تمكن من فصل الذات عن الموضوع و الموضوع عن الذات، حتى يتم بناء العلاقة بينهما على أساس جديد، مشكلة المنهج إذن هي مشكلة موضوعية .

وهنا سؤال الجابري: كيف الفصل إذن بين المقروء والقارئ؟ كيف نبني لأنفسنا فهما موضوعيا لتراثنا؟

والأمر هنا لا يقف عند حد الفصل فقط بل إن العلاقة الموضوعية على مستويين: الأول يتجلى في العلاقة الذاهبة من الذات إلى الموضوع والموضوعية هنا بحسب الجابري تعني فصل الموضوع عن الذات. والمستوى الثاني

[١١] المصدر نفسه، ص ٢٠
[١٢] المصدر نفسه، ص ٢١
[١٣] المصدر نفسه، نفس الصفحة

يتجلى في العلاقة الذاهبة من الموضوع إلى الذات، و الموضوعية تعني في هذا المستوى فصل الذات عن الموضوع[١٤] . فتحقيق الموضوعية إذن مشروط بتحقيقها على المستوى الأول والثاني. ويبقى السؤال هو لماذا هذا الإلحاح؟ والجواب بحسب الجابري هو كون أن القارئ العربي مؤاطر بتراثه؛ بمعنى أن التراث يحتويه احتواءا يفقده استقلاله وحريته، فهذا القارئ العربي منذ ميلاده تلقى تراثه ككلمات ومفاهيم وكلغة وتفكير كمعارف وكحقائق كل ذلك في بعد منه عن الروح النقدية، فهو عندما يفكر يفكر بواسطته ومن خلاله، فيستمد منه آراءه واستشرفاته مما يجعل التفكير هنا عبارة عن تذكر، ما يجعل القارئ العربي عندما يقرأ تراثه يقرأه متذكرا لا مستكشفا ولا مستفهما [١٥]. و يعطي الجابري هنا مثالا للغة العربية التي يقرأها القارئ العربي و على ضوئها يقرأ تراثه ، و هي لغة تحتوي قارئها لأنها مقدسة في وجدانه و لأنها أيضا جزء من مقدساته يقول الجابري في هذا الصدد :" و القارئ العربي بالإضافة إلى ذلك متنقل بحاضره يطلب السند في تراثه و يقرأ فيه آماله و رغباته إنه يريد أن يجد فيه العلم و العقلانية و التقدم أي كل ما يفتقده في حاضره سواءا على صعيد الحلم أو على صعيد الواقع و لذلك نجد عند القراءة يسابق الكلمات بحثاعن المعنى الذي يستجيب لحاجته يقرأ شيئا و يهمل أشياء فيمزق وحدة النص و يحرف دلالته و يخرج به عن مجاله المعرفي التاريخي " [١٦].

يؤكد الجابري على ضرورة فصل الذات عن الموضوع معتبرا إياها الخطوة الأولى نحو الموضوعية، والمكتسبات المنهجية للعلوم الألسنية المعاصرة تقدم لنا طريقة في التعامل الموضوعي مع النصوص، تلك الطريقة التي نلخصها في القاعدة التالية: يجب تجنب قراءة المعنى قبل قراءة اللفظ[١٧]. يجب بحسب لغة الجابري التحرر من الفهم الذي تؤسسه المسبقات التراثية والرغبات الحاضرة، يجب التعامل مع النص التراثي بوصفه شبكة من العلاقات[١٨] ، والسعي إلى تشريحه بشكل دقيق وعميق. وبالرغم من الأهمية التي حضيت بها عملية فصل الذات عن الموضوع إلا أنها تبقى مجرد خطوة تمهيدية تتمكن الذات بواسطتها من استرجاع فاعليتها الحرة لتشرع في بناء الموضوع بناءا جديدا، إنها خطوة تعيد الانطلاق من فصل الموضوع عن الذات فصلا يجعله يسترجع هو الآخر استقلاله وشخصيته.

ثلاث عمليات في هذه الخطوات وهما كالتالي: –

المعالجة البنيوية [١٩]: وتتجلى في معاملة فكر صاحب النص ككل، ويتعلق الأمر بالدرجة الأولى بفكر صاحب النص حول إشكالية واضحة قادرة على فهم، و استعاب جميع التحولات التي يتحرك بها و منها فكر صاحب النص، إن العملية ليست بهذ السهولة لكن الحرص على ضرورة ربط أفكار صاحب النص بعضها ببعض، و كذا ضرورة الانتباه إلى طرائق التعبير لديه، كل ذلك يجعل المهمة أقل صعوبة.

[١٤] المصدر نفسه، ص ٢٢
[١٥] المصدر نفسه، نفس الصفحة
[١٦] المصدر نفسه، ص ٢٣
[١٧] المصدر نفسه، نفس الصفحة
[١٨] المصدر نفسه، نفس الصفحة
[١٩] المصدر نفسه، ص ٢٤

١- **التحليل التاريخي:** ويتعلق الأمر هنا بالدرجة الأول بربط فكر صاحب النص الذي تمت إعادة تنظيمه بمجاله التاريخي، وكذا ربطه بكل أبعاده الثقافية والإيديولوجية والسياسية وكذا الاجتماعية، وهنا هذا الربط ضروري لاختبار صحة النموذج البنيوي لا فقط لاكتساب فهم تاريخي للفكر المدروس والمقصود هنا بالصحة ذلك الإمكان التاريخي الذي يجعلنا على بينة مما يمكن أن يتضمنه النص وما لا يمكن أن يتضمنه.

٢- **الطرح الإيديولوجي:** والذي لا بد منه بحسب الجابري فبدونه يبقى التحليل التاريخي ناقصا صوريا مجردا إن دوره يتجلى في السعي إلى ضرورة الكشف عن الوظيفة الإيديولوجية والتي يخصها الجابري في الوظيفة الاجتماعية والسياسية الذي ينتمي إليها، إن الكشف الإيديولوجي بحسب الجابري هو الوسيلة الوحيدة لجعل الفكر فعلا معاصرا لنفسه.

تاريخية الفكر: الحقل المعرفي والمضمون الإيديولوجي

إن المجال التاريخي لفكر معين يحدد بشيئين اثنين هما[٢٠]: الحقل المعرفي الذي يتحرك فيه هذا الفكر والذي يتكون من نوع واحد ومنسجم من المادة المعرفية وبالتالي من الجهاز التفكيري أي من المفاهيم والتصورات والمنطلقات وكذا المنهج والرؤية. والمضمون الإيديولوجي الذي يحمله ذلك الفكر أي تلك الوظيفة الإيديولوجية السياسية والاجتماعية التي يعطيها صاحب ذلك الفكر لتلك المادة المعرفية.

وينبغي في هذا الإطار أن نحدد نوع العلاقة التي تقوم بين هذين المحددين للمجال التاريخي لفكر معين وبالتالي نوع الروابط التي يجب إقامتها بين الفكر والواقع، لابد من التأكيد هنا على أن الإشكالية النظرية التي تؤسس وحدة الفكر هي أساس إشكالية معرفية نتيجة تناقضات حقل معرفي معين.

وبالتالي فهي تظل قائمة ما دامت الشروط المادية والمعرفية التي يقدمها نفس الحقل المعرفي وداخل نفس الإشكالية، فهي لا تخضع للتناقضات المعرفية بل لتناقضات وصراعات إيديولوجية، تجد أصلها لا في درجة تطور المعرفة وجهازها، بل في المرحلة التي يجتازها المجتمع من التطور. وبهذا فإن كان من السهل ربط فكر فيلسوف ما بالحقل المعرفي الذي ينتمي إليه استنادا على المعلومات والبيانات التي يقدمها لنا تاريخ العلوم والمعارف، فإن المضمون الإيديولوجي الذي يحمله هذا الفكر لا يمكن الرجوع فيه إلى غير هذا الفكر نفسه؛ لأن المطامح السياسية والاجتماعية التي تعبر عنها ايديولوجيا معينة كثيرا ما تكون متقدمة أو مختلفة ليس فقط عن المادة المعرفية التي توظفها بل أيضا عن لحظة التطور الاجتماعي الذي تظهر فيه.

" إن طموحنا في المحاولات التي نقوم بها في هذا المجال متجه كله إلى هدف واحد هو قراءة التراث بشكل يجعله معاصرا لنفسه ومعاصرا لنا في آن واحد وعسى أن نكون قد حققنا بعض الخطوات على هذا السبيل "[٢١].

*** المراجع**

محمد، عابد الجابري. نحن والتراث قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي. الطبعة السادسة. بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٣

[٢٠] المصدر نفسه، ص ٢٩

[٢١] المصدر نفسه، ص ٥٣